الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

قسم علوم الإعلام والاتصال

**اتصال جماهيري والوسائط الجديدة**

**المحاضرة : إثنــــــوغرافيا الجمهور و المستخدمين**

**المستوى : الــــــــــسنة الثــــانية ماســـــــــــــــــتر**

**الاستاذ : الدكـــــــــــــــــتور حمـــــــــــيد حملاوي**

المذكرات الميدانية في البحث الاثنوجرافي

يتضمن البحث الميداني الاثنوجرافي دراسة الجماعات و الافراد و هم يمارسون حياتهم اليومية، و يتطلب تنفيد مثل هذا البحث نوعين مختلفين من المهام ، فالباحث الميداني يدخل اولا الى بيئة اجتماعية و يحاول ان يتعرف على الناس الذين يعيشون فيها ،و الاغلب الا تكون تلك البيئة معروفة للباحث من قبل بشكل وثيق، و يشارك الباحث في الامور اليومية الروتينية لأطراف ذلك الموقف، و يطور بمرور الوقت علاقات مستمرة مع الناس في هذا المجتمع ، و يلاحظ كل ما يدور في لحظة بلحظة ، و الواقع ان مصطلح \* الملاحظة المشاركة\* غالبا ما يستخدم لتشخيص هذا المدخل الاساسي للبحث و لكن الباحث من جهة ثانية ، يدون بشكل منتظم و منهجي كل ما يلاحظه و كل ما يقف عليه من معلومات اثناء مشاركته في جولات الحياة اليومية للأخرين ، و هذا ما ينشأ الباحث الميداني سجلا مكتوبا تتراكم فيه هذه الملاحظات و الخبرات ،ر و يشمل هذان النمطان المرتبطان جوهر البحث الاثنوجرافي ألا و هو المشاركة الشخصية المباشرة في عالم اجتماعي لم يكن معروفا من قبل، و اعداد تقارير مكتوبة عن هذا العالم يصور فيها مثل هذه المشاركة، و سوف يتناول في الفقرات التالية بشكل مفصل كلا من هذه الانشطة، لكي نستخلص دلالاتها و اهميتها بالنسبة لكتابة المذكرات الميدانية.

المشاركة الاثنوغرافية

يلتزم الاثنوغرافيون بالنزول الى الميدان الحقيقي يودون دراسته و ان يقتربوا ما امكنهم من انشطة الاخرين و خبراتهم اليومية ، و يتطلب هذا الاقتراب في حده الادنى درجة

من القرب الجسدي و الاجتماعي من مجالات الحياة اليومية للناس و انشطتهم. و يتعين على الباحث الميداني ان يكون قادرا على اتخاذ اوضاع في قلب المواقع و الاحداث الرئيسية في حياة الناس لكي يلاحظها و يفهمها، و لكن \* الاقتراب\* يتضمن مكونا اخر له دلالة ابعد و اكثر اهمية، فالاثنوجرافي ينشد الانغماس العميق في عوالم الاخرين لكي يفهم خبراتهم المهمة و ذات المغزى، و يستطيع الباحث الميداني بواسطة هذا لانغماس ان يرى من الداخل كيف يمارس الناس حياتهم، و كيف يؤدون انشطتهم المعتادة على مدار اليوم، و ما الذي يعدونه ذا معنى، و كيف يترجمون في افعالهم و هذا فان الانغماس يمنح المشتغل بالعمل الميداني امكانية الانخراط في تيار حياة الناس وم يزيد من حساسيته للتفاعل و العمل معهم.

كما يلاحظ – فضلا من ذلك- ان هذا الانغماس يمكن الباحث الميداني من ان يعايش بنفسه – مباشرة و بقوة- الروتين و الظروف المعتادة التي يمارس الناس في ظلها حياتهم اليومية العادية، و القيود و الضغوط التي تتعرض لها هذه الحياة، و يصدر جوفمان(Goffman 1989/125) بقوة على ان البحث الميداني يعني "اخضاع نفسك ، و بدنك، و شخصيتك، و وضعك الاجتماعي لمجموعة من الظروف و الملابسات التي تؤثر في حياة مجموعة من الافراد، بحيث يصبح بوسعك ان تنفد جسديا و ايكولوجيا الى نطاق استجاباتهم لوضعهم الاجتماعي، او اوضاع عملهم، او وضعهم السلالي و من ثم، فان الانغماس يعني امرين في البحث الميداني، هما ان تكون مع الناس الاخرين لترى كيف يستجيبون للأحداث لحظة وقوعها، و ان يعايش الباحث بنفسه هذه الاحداث و الظروف التي تؤدي الى حدوثها.

و يبدو جليا، ان الانغماس الاثنوجرافي هو الذي يحول دون اجراء البحث الميداني حيث يكون الباحث ملاحظا سلبيا منفصلا عن الناس، فالباحث الميداني لا يستطيع ان يكون قريبا من حياة الافراد الذين يدرسهم الا عندما يشارك بإيجابية في امور حياتهم يوما بيوم، كما ان مثل هذه المشاركة تتطلب حتما درجة ما من اعادة التنشئة الاجتماعية.

فالباحث الميداني عندما يشارك جماعة من الناس حياتهم اليومية فانه يدخل في مصفوفة المعاني لدى مبحوثيه، و يشاركهم انشطتهم المنظمة، و يشعر بالالتزام بقواعدهم الأخلاقية (wax 1980/272.73) و يستطيع الباحث من خلال مشاركته الكاملة و الانسانية-قدر الاستطاعة- في طريقة اخرى للحياة، ان يعرف ما هو مطلوب منه لكي يصبح عضوا في هذا العالم الجديد ، و ان يعيش الاحداث و المعاني بطرق تقترب من خبرات اطرافها . و الحقيقة ان بعض الاثنوجرافيين يسعون الى القيام بالبحث الميداني و ذلك بان يفعلوا و ان يصبحوا – بقدر الامكان- كل ما يتعين عليهم أيا كان الموضوع الذي يدرسونه، فالإثنوغرافيون ، مثلا اصبحوا مهرة في اداء الانشطة التي يسعون الى فهمها(Lynch 1985.Diamond 1993 ) او يشاركون- عن ايمان و اقتناع- في انشطة الكنائس او الجماعات الدينية على اساس انهم عندما يصبحون اعضاء في هذه الجماعات فانهم يكتسبون قدرة على رؤية و فهم تلك الجماعات و انشطتها. كما ان بعض القرويين قد يسندون دورا معينا لباحثه ميدانية، كأن تكون اختا او اما في اسرة ممتدة مما يلزمها بان تشارك و ان تعيد تنشئته نفسا اجتماعيا حتى تستطيع الوفاء بما تتوقعه منها الجماعة المحلية .

ولا يستطيع المشتغل بالميدان و هو يدرس الاخرين من خلال المشاركة الايجابية في حياتهم و انشطتهم ، ان يحاول البقاء على الهامش متجنبا اي مخالفة. فلا يوجد باحث ميداني يمكنه ان يكون محايدا تماما، و ملاحظا منفصلا ، و خارجا و مستقلا عن الظاهرة التي يلاحظها ، و لكنا نؤكد مع ذلك ان الباحث الميداني عندما ينخرط في حياة

المبحوثين و شئونهم ، فان منظوره الحاص يبقى مضفرا مع الظاهرة التي لا تملك خصائص موضوعية مستقلة عن المنظور القائم بالملاحظة و مناهجه ، و لا يمكن ان يستوعب كل شيء و لكنه يستطيع من خلال معايشته لأفراد المجتمع ان يطور منظورات معينة بانخراطه في بعض الانشطة و العلاقات الاكثر من سواها، و علاوة على هذا، فان الباحث الاثنوجرافي قد يتعرض لتغيير اولوياته و وجهات نظره، ذلك ان اقامته علاقات مع المبحوثين قد تخضع لاعتبارات سياسية محلية خاطئة، و الخلاصة انها ليست مهمة الاثنوجرافي ان يحدد "الحقيقة" و انما عليه ان يكشف عن الحقائق المتعددة التي تتجلى في حياة الاخرين.

و علاوة على هذا، فان وجود الباحث الاثنوجرافي في الميدان ستكون له حتما بعض المعاني و التداعيات بالنسبة لمجريات الاحداث، حيث انه لبدا و ان يتفاعل مع المبحوثين مما يترتب عليه بالضرورة ان يؤثر فيهم. و يرتبط الحضور المؤثر للباحث غالبا بتأثيرات ردود الفعل( و يقصد بها تأثير مشاركة الباحث على كيفية سلوك الاعضاء و حديثهم) و يتعين الا ينظر اليها على انها "تفسد" ما يلاحظه الباحث و ما يقف عليه من معلومات. بل ان هذه التأثيرات هي المصدر الحقيقي لتلك المعلومات و الملاحظة ، و لا تؤذي الصلات التي تربط بين الباحث الميداني و بين أفراد مجتمع الدراسة الى احداث إرباك او تغيير جسيم في الانماط المتبعة للتفاعل الاجتماعي بقدر ما تكشف عن الاسس التي يقيم عليها الناس علاقاتهم الاجتماعية و المصطلحات التي يستخدمونها لوصفها و التعبير عنها، فعلى سبيل المثال في قرية يرتبط فيها الناس بروابط القرابة، قد يتقبل الناس باحثا ميدانيا و يدمجونه في عائلة معينة و ينسبون اليه مصطلحا قرابيا يوضح حقوقه و مسئولياته اتجاه الاخرين. إن العلاقات المباشرة التي يقيمها الباحث الميداني مع افراد مجتمع بحثه لا تنتقص مما يمكن ان يجمعه من

معلومات ، و انما يمكن ان تزوده بمفاتيح مهمة لفتح مغاليق كثير من الامور، حيث يصبح بإمكانه ان يتعرف و يفهم الاسس المعنوية الضمنية( المستترة) التي لا تكون متاحة غالبا من خلال اساليب الملاحظة او المقابلة وحدها. معنى هذا انه يتعين على الباحث الاثنوجرافي الا ينظر الى ردود الفعل من جانب المبحوثين على انها امور سلبية يجب التحكم فيها بعناية او تجنبها، و انما عليه ايضا ان يصبح حساسا و مدركا للكيفية التي ينظر بها الاخرون اليه و يتعاملون معه.

و من شأن التداعيات الحتمية لوجود الباحث الميداني ان ينزع اي ميزة خاصة عن ادائه لعمله متخذا دور الملاحظ الهامشي المتباعد(المنفصل) "غير المتطفل" و التي طالما كانت تجسد المثل الاعلى الضمني للباحث في البحث الميداني، و يؤيد الكثير من الاثنوجرافيين المعاصرين ادوار المشاركة الواسعة و الايجابية التي تؤدي بها الباحث فعلا الانشطة المحورية في حياة المبحوثين ، و طبقا لهذه النظرة فان تحمل بعض المسؤوليات الحقيقية عن اداء بعض الوظائف و المهام الحيوية ، على نحو ما يوجد في التدريب المقيم على اداء الخدمات العامة، من شأنه ان يتيح للباحث فرصا خاصة كي يكون قريبا، و مشاركا، و ملما بخبرات حياة في مجتمع لم يكن يعلم عنه شيئا، ان كلا من المتدرب المقيم الذي يتحمل مسئوليات حقيقية في كمجال العمل، أو الباحث الذي يشارك مشاركة ايجابية في حياة القرية، ينغمس في انشطة محلية و يتلقى تنشئة اجتماعية مناسبة لممارسة تلك الانشطة و يصبح قادرا على اكتساب التعاطف مع الأساليب المحلية للسلوك و الاحساس.

و اخيرا فان المشاركة الوثيقة، و المستمرة في حياة الاخرين تحفز الى فهم البنية الحقيقية للحياة الاجتماعية من خلال انسياب العمليات المختلفة، كما ان الباحث الميداني يرى من خلال المشاركة المباشرة و اللصيقة كيف يتصدى الناس لشتى اشكال الفوضى و عدم اليقين، و كيف تتولد المعاني اثناء الاحاديث و الممارسات الجمعية، و كيف تتغير صور الفهم و التفسير بمرور الوقت ، و استنادا الى هذه الطرق جميعا، فان من شأن اقتراب الباحث الميداني من حياة الناس و انشطتهم اليومية ان يعلى من حساسيته للحياة الاجتماعية كعملية.

تدوين الوقائع المعاشة/الملاحظة

لا يمكن للباحث الاثنوجرافي ان يصبح عضوا في وضع اجتماعي بنفس المعنى او القدر الذي يكون عليه اعضاؤه "الطبيعيون" حتى لو قدر لها الباحث ان يعيد تنشئة نفسه اجتماعيا بشكل مكثف، كما ان الباحث الميداني يخطط عادة لمغادرة الموقع بعد ان يمكث فيه فترة محدودة نسبيا، و تصطبغ خبرته بالحياة المحلية و تتلون وفقا لمدى السرعة في ترك المكان ،و النتيجة التي تترتب على ذلك "ان القائم بالعمل الميداني لا يشارك في حياة الجماعة بنفس القدر من الالتزام او الخضوع للقيود التي يتقيد بها ابناء المجتمع المدروس كما ان الباحث الميداني يتوجه الى رؤية كثير من الاحداث المحلية ليس بصفتها "حياة حقيقية" و انما بوصفها موضوعات لاهتمام بحثى محتمل، و كأحداث قد يقع اختياره عليها ليكتب عنها و يحتفظ بها في مذكراته الميدانية، و هكذا فان الالتزامات الباحث الاثنوجرافي بالبحث و الكتابة هي التي تؤهله للانغماس في العمل الميداني ، و لككنها تجعل منها شخصا خارجيا بالنسبة للجماعة Outsider ، قد يكون بعض الحلات القصوى مغتربا ثقافيا عن المجتمع.

و المذكرات الميدانية هي تقارير تصف الخبرات و الملاحظات التي تتجمع لدى الباحث اثناء استغراقه المكثف في المشاركة، و لكن كتابة التقارير الوصفية عن الخبرات و الملاحظات ليست عملية مباشرة و شفافة كما قد تبدوا لأول وهلة، ذلك ان كتابة الوصف ليست مجرد الاحاطة الدقيقة بالوقائع التي جرت ملاحظتها عن قرب وثيق قدر الإمكان، و لا مجرد التعبير بالكلمات عن الاحاديث التي استمع اليها الباحث و الانشطة التي شاهدها، فالنظر الى عملية كتابة الاوصاف على انها مجرد اعداد نصوص مكتوبة تتطابق بشكل صحيح مع ما جرى ملاحظته، انما يفترض انه ليس هناك سوى نص "صحيح" واحد فقط لأي حدث بعينه، مع انه لا توجد في حقيقة الامر طريقة واحدة "طبيعية" او "صحيحة" للكتابة عما لاحظه الباحث عن وقائع، فالحقيقة ان مثل هذه الاوصاف تخضع لأمور تتعلق بالإدراك و التفسير ، و لهذا السبب يكون من الممكن- و ربما الطبيعي-ان توجد اوصاف مختلفة لنفس الموقف او ذات الحدث.

و لنتأمل على سبيل المثال، الاوصاف الثلاثة التالية التي كتبها ثلاثة من الطلاب الباحثين لملاحظتهم في طوابير السداد السريع لأثمان المشتريات بثلاثة من محلات السوبر ماركت المختلفة بمدينة لوس أنجلوس، و تشترك الاوصاف الثلاثة في عدد من الملامح العامة: فهي جميعا تصف الاحداث من وجهة نظر الملاحظين/المتسوقين خلال تحركهم في طوابير الدفع ، و هي جميعا تقدم اوصافا مادية(جسدية) لأطراف اخرى مهمة في الطوابير- كالصراف، و المشترين الاخرين ووصفا على الاقل لبعض السلع التي اشتروها، كما انها قد انتبهت بشكل وثيق لبعض التفاصيل السلوكية الدقيقة التي وقعت في طوابير الدفع ، و مع هذا ، فان كلا من الباحثين الثلاثة قد اتخذ مسلكا مختلفا .